هذا وقد ذكر بعض الرواة ومنهم ابن الرشيق في العمدة في باب منافع الشعر ومضارّه ان ابا الطيب قاتل حتى احسّ بالضعف فعمد الى الفرار فقال له غلامه: « لا يتحدّث الناس عنك بالفرار وانت القائل »:

« فالخيلُ والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ »

فقال: « قتلتني قتلك الله ! » وكرّ راجعاً حتى قُتل

رثاؤه

وقد رثى المتنبي كثيرٌ من الشعراء المجيدين منهم ابوالفتح عثمان بن جنّي النحوي المشهور وابو القاسم مظفر بن علي الطبَسي ومن قول هذا في ذكره:

كان من نفسه الكبيرة في جيشٍ ومن كبريائهِ في سلطانِ
ما رأى الناس ثانيَ المتنبي ايُثنانِ يُرى لبكر الزمانِ
هو في شعره نبيٌّ ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

(لهُ بقية)

قلعة نابوليون المزعومة على المقطم

نبذة مقتطفة من تآليف الباحث المدقّق محمّد عبد الجواد الاصمعيّ [١]

انّ فوق الجبل المشرف على القاهرة الشهير بالمقطّم ابنيةً جليلة اخصها القلعة القديمة المنسوبة الى السلطان صلاح الدين الايوبي والمعروفة بقلعة الجبل ثمّ الجامع البديع الذي شيّدهُ محمّد علي منشئ الدولة المصريّة الحاضرة التي يجلس اليوم على اريكتها صاحب الجلالة الملك فؤاد الاوّل. وفوقهُ كذلك مسجد قديم يُعرف بمسجد الجيوشي وليس بعيداً منه ابنية محصّنة تُعرف عند العموم بقلعة نابوليون لزعمهم انّهُ شيّدها لما حمل على مصر سنة ١٧٩٨

١) راجع كتابهُ المتّع قلعة محمّد علي لا قلعة نابوليون. في مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة ١٣٤٢-١٩٢٤

وقد شاع هذا الزعم حتى اصبح كالحقيقة التاريخيَّة. قال الاستاذ الاصمعي: «لبث علماء التاريخ والمنقطعون لدراسة الآثار في مصر وغيرها حيناً من الدهر يقولون انَّ تلك القلعة الباذخة الاركان الشامخة البنيان من عمل عظيم الفرنسيس نابليون. وقد قامت بشأنها في السنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٧ م) ضجَّة عظيمة على صفحات الجرائد العربية بين يوميَّة واسبوعيَّة من طلبة المدارس الثانويَّة والعالية ومحبي الآثار المصريَّة لمعرفة حقيقة هذه التسمية ولماذا سُمِّيت القلعة بهذا الاسم. فطلبوا من لجنة حفظ الآثار العربيَّة وصاحب العزَّة الشيخ محمَّد الخضري بك وكيل مدرسة القضاء الشرعي واستاذ التاريخ بالجامعة المصريَّة يومئذ ان يرشدهم الى تلك الحقيقة التي عُمِّيت عنهم ... فمرَّت الأيام وتعاقبت الشهور فلم يلبُّوا الدعاء.»

ثمَّ تناولت الجرائد المصريَّة هذا البحث «فزعم البعض (١ انَّ مشيِّدها السلطان صلاح الدين الأيوبي واستشهد بما قالهُ المقريزي عن «قلعة الجبل» المعروفة في جميع كتب التاريخ... وادَّعى آخرون انَّها بُنيت في عهد المماليك. والمعروف الآن على ألسنة طلبة العلم واساتذتهم من مصريين وفرنجة انَّها من آثار نابليون بدون ان يؤيِّدوا ما يرونهُ عنها ببرهان او صحة دليل حتى تقالوا وكتبوا على بابها بالطلاء جملة بالفرنسيَّة (Souvenir de l'Expédition française) اي تذكار الحملة الفرنسويَّة»

قال الاستاذ: «ولمَّا اصبحت هذه المسألة التاريخيَّة جديرة بالبحث تفادياً من الوقوع في هذا الارتباك والخبط في اودية التضليل الذي وقع فيهِ بعض من يدَّعون البحث والتنقيب. رأينا انهُ من العار الكبير ان نجهل حقيقة من شيَّد اركانها واقام بنيانها فوصلنا سواد الليل ببياض النهار لاستيفاء هذا البحث التاريخي»

ليست القلعة لنابليون

«وزيادةً للتحقيق طلبتُ من صاحب السعادة الاستاذ احمد زكي باشا المعروف بعلوّ كعبهِ في البحث والتحقيق والقدح المعلَّى في التنقيب ان يبحث في خرائط الحملة الفرنسية والكتب التي دُوِّنت في ايَّامهم عن وجود هذه القلعة اذا كانت من اعمال

١) راجع جريدة المرآة الصادرة في ١٨ ابو سنة ١٩١٧

نابليون كما يدَّعون ام لا . فبحث حفظهُ الله فيما وضعهُ المؤرخون الفرنسيون انفسهم عن الحملة الفرنسية على مصر الذين لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلَّا احصوها في كتبهم ورسموها في خرائطهم فلم يجد لهذه القلعة من اثر

«وافادنا ان الفرنساويين انفسهم وقت استيلائهم على مصر رسموا خريطة القاهرة ولم يغفلوا الاشارة الى الابراج والحصون والاستحكامات التي اقاموها حول عاصمة وادي النيل لقمع الفتن التي كانوا يتوقعون حدوثها داخل القاهرة . هذه الخريطة الكبرى لمدينة القاهرة طبعوها ضمن كتابهم الكبير الموسوم وصف مصر (Description de l'Egypte) (نُشرت هذه الخريطة هنا مصغَّرة)

«وقد طبع الكتاب مرَّتين . . وفي كلتا الطبعتين لم يظهر اثر مطلقاً لهذه القلعة لا في المتن ولا في الخريطة الجامعة لكلّ ما كان في القاهرة وما شيَّدوهُ فيها من القلاع والحصون في أيام بونابرت حتى بعد سفره من مصر . . وهي برج مارتينه (Tour Martinet) وبرج سورنيه (T. Sornet) وبرج لامبير (T. Lambert) وبرج ريبول (T. Reboul) وبرج ديبوي (T. Dupuis) وبرج ڤينو (T. Venouz) وبرج جريزيو (T. Grézieux) وبرج شلوكوڤسكي (T. Chloukowsky)

«وهنالك ما هو اكبر في الدلالة والبرهان وذلك انهم حوَّلوا بعض المجامع وبعض الابواب الاثرية بمصر الى قلاع وابراج واطلقوا عليها اسماء رجالاتهم وقوَّادهم واهملوا اسماءها العربية التي كانت قبلهم ولا تزال هذه الاسماء الى الآن منقوشة عليها مثل باب الفتوح فقد حصَّنوهُ وجعلوهُ قلعة باسم برج لسكال (Tour Lescal) ومثل مئذنة جامع الحاكم فقد فعلوا ذلك فيها وسمَّوها قلعة ڤاي (Fort Vaille) ومثل باب النصر فقد سمَّوهُ برج يوليان (Tour Julien) . . . فاذا كان الفرنسويون اطلقوا اسماء رجالاتهم وقوَّادهم على نفس الجوامع والمآذن الاسلامية فهل يدور بخلد عاقل انهم يعزلون الاشارة الى قلعة بناها بونابرت ؟ هذا ما لا يتصوَّرهُ رجل رشيد . وهم انهم تركوا ذكرها لا لسبب آخر سوى انَّ بونابرت لم يعرفها ولم يشيّدها ولم يكن لها وجود في ايامهِ ولا في أيام من بقي بعدهُ من رجال الحملة الفرنسيَّة حتى سنة ١٨٠١م التي تمَّ فيها خروجهم من مصر»

بل القلعة لمحمَّد علي باشا

«لمَّا كانت هذه القامة من الآثار التي وجب علينا البحث عن حقيقتها لم نترك كتاباً مخطوطاً او مطبوعاً في تاريخ مصر منذ عهد الدولة الايوبيَّة الى أيام المرحوم محمَّد علي باشا الَّا قرأناه ولا باباً الَّا درسناه حتى وفَّقنا الله بهداية التحقيق الى كتاب مخطوط غير معروف للآن محفوظ بدار الكتب المصريَّة ضمن كتب التاريخ تحت رقم ٥٨٥ عنوانهُ «تاريخ الوزير محمَّد علي باشا» ومؤلفهُ العلَّامة المؤرخ الشيخ خليل ابن محمَّد الرجبيّ الشافعي الشاذلي احد معاصريهِ قال في مقدَّمتهِ: «انَّ شيخ الاسلام الشيخ محمَّد العروسي امرهُ بتأليفهِ وانَّ ذلك كان في سنة ١٢٤٥هـ(١٨٢٩م)اي قبل وفاة محمَّد علي باشا بعشرين سنة

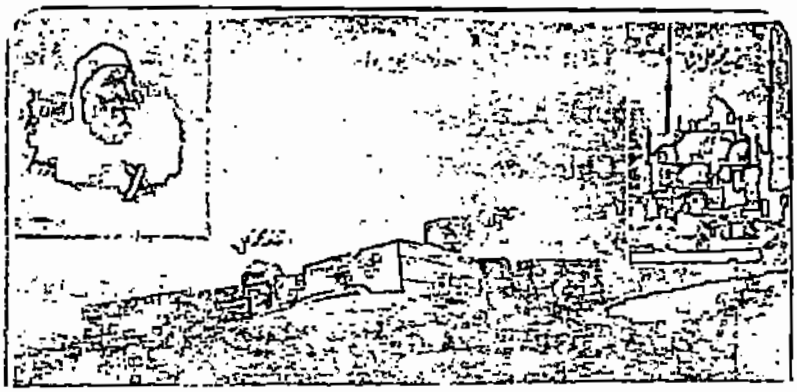

ثم انتبه الرواة الى «الفرنسيس» غريبة
لم يروها التاريخ في أدواره
ذكروا «لنابليون» عالم بيننا
والحق لا يخفى على أنصاره
فالجماعة الأسمى "بناؤ" "محمد"
وكذاك هذا الحصن من آثاره

مهى ياصف

المقطم وابنيتهُ

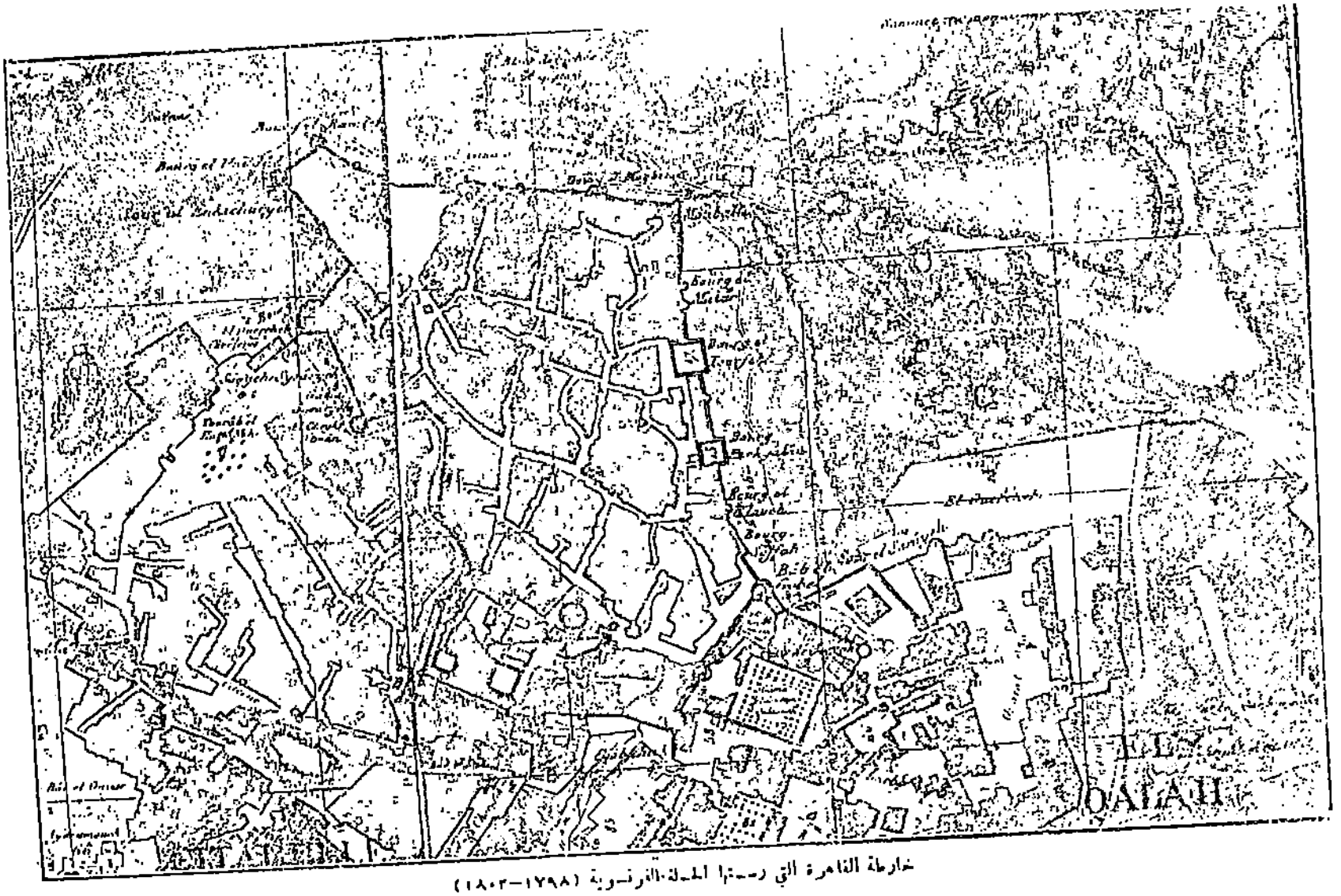

خارطة القاهرة التي رسمتها الحملة الفرنسية (١٧٩٨–١٨٠٢)

«تصفَّحنا هذا الكتاب الثمين فاذا هو يحتوي على شذرات من تاريخ مصر قبل دخول الفرنسيين اليها وحالة امرائها واخلاق محمَّد علي باشا واخراجه من كان بمصر من المماليك المفسدين وغيرهم وتعميره ارض مصر وإحياءه قطرها بالزرع . ولكنَّ الامر المهمّ والتحفة النادرة في هذا الكتاب الثمين هو انَّ المؤلف عقد فصلًا ذكر فيه بعض آثار محمَّد علي من الابنية والعمارات وغير ذلك . حينئذٍ لاحت لنا بوارق الفتوح اذ توسَّمنا انهُ لا بُدَّ ان يكون فيه شفاء غلَّتنا وانهُ سيكون خير مرشد الى ضالَّتنا المنشودة

«وانَّنا نحمد الله فقد تحقَّق الظنّ اذ وجدنا في هذا الكتاب النفيس ما كنَّا نسعى وراءهُ من البيان الصحيح والرواية الصادقة فيما يتعلَّق بشأن هذه القلعة

«ففي مقالته الرابعة يصف الكاتب الطريق الذي اوصله محمَّد علي من باب قلعة الجبل وسار به ممتدًّا الى المقطَّم باتقان العمل . . . وهذا الطريق في غاية الاتساع يزيد مقدارهُ عن الف ذراع . . ثم قال :

وبعد ان فرغوا من الطريق وايصاله والتصاقه بالجبل وتمام اتصاله امر (اي محمَّد علي) ان يُبنى بذروة الجبل قلعة حصينة تصدّ بجلَلها كل وجل وان يُتَّخذ بها سيل جليل لخزن الماء العذب ليكون ثمَّ كالسليل فبنيت به القلعة مع اتقان التحصّن بالابراج وهي هناك كالكوكب السامي الساطع الوهّاج وظهر بناؤهُ مظهرًا جميلًا واقام به قيّمًا رئيسًا وكيًا وكيلًا وتمَّ احكام ذلك السيل المتين وامتلأ من صافي العذب المَعين ثمَّ اعدَّ به اجناد الحراسة وامدَّهم بأسرار العدّة والحماسة وشحنهُ بالذخائر الكاملة والمدافع المريعة لمن أمَّ له فصار بهجة للناظر وحجّة لارغام انف المناظر وهو لعمري من اعظم لوازم حفظ القلعة وأكبر المنافع لها في القوَّة والمنعة وكانت الامراء والملوك من السابقين في غفلة عن صنع مثله اجمعين ولكنَّ للمظاهر ارباب وللمعالي روَّاد وطلَّاب . . .

«فلمَّا ظفرنا بهذه الغنيمة بعد طول البحث وكثرة التنقيب بلغ منَّا السرور كل مبلغ . وقد تثبَّتنا من صحَّة رواية هذه النسخة بمراجعة نسخة اخرى محفوظة بالخزانة الزكيَّة فوجدناها مطابقة لها تمام المطابقة

«وقد اتت بعد ذلك مستندات اخرى تؤيد ما ورد في التاريخ السابق ذكره من جملتها ما افادنا صاحب السموّ الامير عُمر طوسون نقلًا عن كتاب سياحة دوقة واكوزه المريشال مارمون (Maréchal Marmont) الذي زار مصر في ايام محمَّد

علي سنة ١٨٢٣ ومما جاء في الجزء الثالث من سفر سياحتهِ المطبوعة في باريس سنة ١٨٣٧ (ص ٢٨١) ما تعريبهُ :

«لمَّا كانت القلعة (اي قلعة الجبل) يُشرف عليها جبل المقطم الذي هو نهاية سلسلة جبال العرب شيَّد محمد علي على قمَّة هذا الجبل حصنًا على النسق التركي ليكون في قبضة يدهِ يتحكَّم به في هذه القلعة . وقد عُني بهذا الحصن العناية الواجبة وجعلهُ قادرًا على مقاومة من يريد اقتحامهُ . . . وهذا الحصن مربَّع ضيِّق النطاق يستند الى سياج من الحجارة وفي وسطهِ برج والبرج والحصن مسلَّحان بالمدافع »

«ومما يؤيِّد هذا ايضاً ما كتبهُ المؤرخ الفرنسي والدكتور الشهير كلوت بك (Clot Bey) احد معاصري المغفور لهُ محمَّد علي في كتابهِ «لمحة عامَّة الى مصر» الذي عرَّبهُ الكاتب البليغ محمَّد مسعود بك المحرِّر الفنِّي بوزارة الداخليَّة فقد ورد فيهِ (١ : ٤٤) ما نصُّهُ :

« اما القلعة (قلعة الجبل) فالى الجنوب من القاهرة على الجبل الاشهر من سلسلة جبال المقطم وهي تحكم المدينة وقد انشأها في مكانها السلطان صلاح الدين الايوبي ليس لها في الحقيقة اهمية ما من الوجهة الحربية لانَّ هناك جبلاً آخر يتسلَّط عليها انشأ محمد علي فيهِ قلعة صغيرة تعوِّض ما ينقص القلعة الاصلية من جودة الموقع ومزيَّته »

«فكلّ هذه الادلة الواضحة تزيل كل شكّ عن نسبة هذهِ القلعة الى محمد علي . وقد اتتنا التهانئ على تحقيقنا لهذا البحث من قبل صاحب الجلالة الملك فؤاد الاوَّل ومن ارباب العلوم والآثار وقد صدَّقت على قولنا معظم الجرائد الوطنية فنقدِّم لجلالتهِ ولجميع الذين تفضَّلوا وبلَّغونا سموّ رضاهم عواطف شكرنا العميم »

(المشرق) ونحن نهنِّئ الاستاذ الاصمعيَّ على كشفهِ لتلك القضيَّة التاريخيَّة المعمَّاة . وفي طريقة بحثهِ احسن مثال لبيان الحقائق بأدلَّة وضعيَّة ومستندات راهنة لا شكَّ فيها . فلجنابهِ اطيب الثناء على اجتهادهِ وتحقيقهِ